أثقل من رضوى

مقاطع من سيرة ذاتية لرضوى عاشور

عبد الفتاح القلقيلي

قبل ثمان وخمسين عاما كنتُ مدرسا في مدرسة الشوبك الثانوية في محافظة معان الأردنية، وزار البلدة رجل مسن يعمل سمكريا (مصلح بوابير الكاز)، وكان أرمنيا، وتصادف أن نزل الثلج بغزارة فاستضفت السمكري في بيتي لمدة اسبوع.

ومما تعلمته من حكمة ذلك الرجل في حينه قوله: أعلم يا بني انك تكره طاولات المشروب والقمار ومن عليها، ولكن لطاولات المشروب والقمار فضل بانها تكشف حقيقة من عليها. فالإنسان على الطاولات العادية يبدو كما يشاءُ أن يبدو، أي لا يكون على طبيعته وحقيقته، أما عندما يسكر أو يخسر يبدو على حقيقته.

وبعد ثمان وخمسين عاما اقرأ كتاب رضوى عاشور الحالي بعنوان "اثقل من رضوى" فانادي على ذلك السمكري لاقول: يا عماه!!! وعلى سرير المرض لا يكون الإنسان إلا نفسه. فقد كتبت رضوى عاشور كتابها هذا وهي بين أسرّة مرضها الأخير فتجلّت عظمتها. فمن يقرأ هذا الكتاب ولم يسبق له ان تعرف على رضوى عاشور سيدرك أن جيل رضوى هو الوريث الشرعي للرائدات اللواتي عبّدن الطريق لبناتهن وحفيداتهن بعسر بالغ. وكان امتياز رضوى عاشور هو أنها لم تتفرغ لمطارحات وسجالات عقيمة حول الجندر، أو استحقاق الأنوثة في عالم عربي بترياركي تحكمه ديكتاتورية الذكورة وطغيان ثقافتها، واختارت أن تكتب وتواصل مشروعها بتناغم مع الذات.

فنادرا ما تحتشد خمس صفات وبجدارة في رجل أو امرأة، لكنها احتشدت بجدلية فذّة في رضوى عاشور: الروائية، والأكاديمية، والناقدة، والناشطة السياسية، والإنسانة. وما انفكت تقول: ما الخطأ في أن يتعلق الغريق بلوح خشب أو عود أو قشة؟! ما الجرم في أن يصنع لنفسه قنديلا مزججا وملونا لكي يتحمل عتمة أيامه؟! ما الخطيئة في أن يتطلع إلى يوم جديد آملا ومستبشرا؟!

كان الدكتور عبد الوهاب (جد رضوى عاشور لامها) مغرما باسماء الجبال العظيمة، وقد وافقه على ذلك المحامي مصطفى عاشور (ابو رضوى عاشور) فسمى ابنه الاول "طارق" تيمنا بـ"جبل طارق" الذي يقف شامخا مشرفا على مضيق يربط العالمين القديمين. وسمّى ابنته الوحيدة "رضوى" تيمنا باسم "جبل رضوى". وجبل رضوى ذو مكانة خاصة، ولمن لا يعرفه نقول:

"جبل رضوى هو جبل يقع في قرية تسمى رخو تابعة لمحافظة ينبع بمنطقة المدينة المنورة. يتميز هذا الجبل بارتفاعه وجماله وشهرته على مر التاريخ. وينمو فيه الهيل والزعتر البري.

وتذكر كتب تاريخ الادب أبيات شعر مشهورة في هذا الجبل. من هذه الأبيات قول حسان بن ثابت :

لنا حاضر فعم وبادٍ كأنه ... شماريخ رضوى عزة وتكرما

وقال المتنبي في الرثاء :

ما كنت أحسب قبل دفنك في الثرى ... رضوى على ايدي الرجال تسير

وكان العرب القدماء تقول عن الامر اذا استعظمته: "أثقل من رضوى"

وانا هنا لا ادري بدقة ما الذي اراد الجد (الدكتور عبد الوهاب) والاب (المحامي مصطفى عاشور) ان يوحيا بهذا الاسم؟ هل كانا يتوسمان يوم ٢٦ ايار/مايو١٩٤٦ (يوم مولدها في القاهرة) انه سيكون لرضوى "شماريخ عز وتكرّم" كما قال حسان بن ثابت، ام كانا يتوقعان ان يكون لها ثقل جبل رضوى؟

ليت الجد والاب يعلمان انه كان لها "شماريخ عز وتكرم، كما ليتهما يعلمان انه ربما تمتم زوجها الشاعر "مريد البرغوثي"، وابنها الشاعر "تميم البرغوثي"، ربما تمتما معا في القاهرة ايضا يوم ٣٠ تشرين ثاني/نوفمبر٢٠١٤ (يوم وفاتها) بيت المتنبي الذي يقول:

ما كنت أحسب قبل دفنك في الثرى ... رضوى على ايدي الرجال تسير

خاصة انها اسمت كتابها الاخير "أثقل من رضوى"، وقد كان مقاطع من سيرتها الذاتية.

كانت رضوى لا تهتم بذاتها الا بمقدار ما يحتاج نضالها في ميادين الابداع كافة، وميادين الحراك الوطني والقومي في مقاومة اعداء الامة والحرية سواء الخارجيين منهم او الداخليين.

وابدأ بعرض موجز لسيرتها الذاتية:

رضوى عاشور (٢٦ مايو ١٩٤٦ - ٣٠ نوفمبر ٢٠١٤) كانت قاصة وروائية وناقدة أدبية وأستاذة جامعية مصرية. تميز مشروعها الأدبي، في شقه الإبداعي، بتيمات التحرر الوطني والإنساني، إضافة للرواية التاريخية. تراوحت أعمالها النقدية، المنشورة بالعربية والإنجليزية، بين الإنتاج النظري والأعمال المرتبطة بتجارب أدبية معينة. تمت ترجمة بعض أعمالها الإبداعية إلى الإنجليزية والإسبانية والإيطالية والإندونيسية..

درست اللغة الإنجليزية في كلية الآداب بجامعة القاهرة، وبعد حصولها على شهادة الماجستير في الأدب المقارن، من نفس الجامعة، انتقلت إلى الولايات المتحدة حيث نالت شهادة الدكتوراه من جامعة ماساتشوستس، بأطروحة حول الأدب الإفريقي الأمريكي.

في ١٩٧٧، نشرت رضوى عاشور أول أعمالها النقدية، الطريق إلى الخيمة الأخرى، حول التجربة الأدبية لغسان كنفاني. وفي ١٩٧٨، صدر لها بالإنجليزية كتاب جبران وبليك، وهي الدراسة النقدية، التي شكلت أطروحتها لنيل شهادة الماجستير سنة ١٩٧٢.

في نوفمبر ١٩٧٩، وتحت حكم الرئيس أنور السادات، تم منع زوجها الفلسطيني مريد البرغوثي من الإقامة في مصر، مما أدى لتشتيت أسرتها.

في ١٩٨٠، صدر لها آخر عمل نقدي، قبل أن تلج مجالي الرواية والقصة، والمعنون بالتابع ينهض، حول التجارب الأدبية لغرب إفريقيا. ستتميز تجربتها إلى غاية ٢٠٠١، بحصرية الأعمال الإبداعية، القصصية والروائية، وكانت أولاها أيام طالبة مصرية في أمريكا (١٩٨٣)، والتي أتبعتها بإصدار ثلاث روايات (حجر دافئ، خديجة وسوسن وسراج) والمجموعة القصصية رأيت النخل، سنة ١٩٨٩. توجت هذه المرحلة بإصدارها لروايتها التاريخية ثلاثية غرناطة، سنة ١٩٩٤، والتي حازت، بفضلها، جائزة أفضل كتاب لسنة ١٩٩٤ على هامش معرض القاهرة الدولي للكتاب.

اشتغلت، بين ١٩٩٠ و١٩٩٣ كرئيسة لقسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب بجامعة عين شمس، وظلت حتى ٢٠١٣ تزاول وظيفة التدريس الجامعي والإشراف على الأبحاث والأطروحات المرتبطة بدرجتي الدكتوراه والماجستير.

مع بداية الألفية الثالثة، ستعود عاشور لمجال النقد الأدبي، حيث أصدرت مجموعة من الأعمال تتناول مجال النقد التطبيقي، وساهمت في موسوعة الكاتبة العربية (٢٠٠٤)، وأشرفت على ترجمة الجزء التاسع من موسوعة كامبريدج في النقد الأدبي (٢٠٠٥)

نشرت بين ١٩٩٩ و٢٠١٢ أربع روايات ومجموعة قصصية واحدة، من أهمها رواية الطنطورية (٢٠١١) ومجموعة تقارير السيدة راء القصصية.

في ٢٠٠٧، تُوجت بجائزة قسطنطين كفافيس الدولية للأدب في اليونان، وأصدرت سنة ٢٠٠٨، ترجمة إلى الإنجليزية لمختارات شعرية لمريد البرغوتي بعنوان "منتصف الليل وقصائد أخرى".

رضوى عاشور عضو فاعل في العديد من المؤسسات الجمعوية ، منها: لجنة الدفاع عن الثقافة القومية، واللجنة الوطنية لمقاومة الصهيونية في الجامعات المصرية، ومجموعة ٩ مارس لاستقلال الجامعات، إضافة إلى عضويتها في مجموعة من اللجان التحكيمية المرتبطة بالمجالين الثقافي والأكاديمي كلجنة جائزة الدولة التشجيعية، ولجنة التفرغ بالمجلس الأعلى للثقافة، ولجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة.

شاركت رضوى عاشور في العديد من المؤتمرات وساهمت في لقاءات أكاديمية عبر العالم العربي (بيروت وصيدا ودمشق وعمان والدوحة والبحرين وتونس والقيروان والدار البيضاء)، وخارجه (في جامعات غرناطة وبرشلونة وسرقسطة في إسبانيا، وهارفرد وكولومبيا في الولايات المتحدة، وكمبريدج وإسكس في إنجلترا، ومعهد العالم العربي في باريس، والمكتبة المركزية في لاهاي، ومعرض فرانكفورت الدولي للكتاب وغيرها).

واخيرا رأت انه عليها ان تكتب سيرتها الذاتية وذلك في اواخر عام ٢٠١٠ حيث بلغت الرابعة والستين من عمرها، وتوفي اخوها الاكبر (طارق) في السادس من سبتمبر ٢٠١٠، وبعد خمسة اسابيع لحقت به امها (ص٨).

وها انذا اقدم قراءة لهذا الكتاب المميز بين السير الذاتية التي قراتها كما اشرت في بداية هذه

القراءة، والذي تقول عنه رضوى " انه يجمع بين السيرة والمذكرات" (ص٢٧١).

تقول رضوى "عندما كنتُ في سن المراهقة كان لقاء شاعر او كاتبة، او مجرد رؤية احد من الكتاب لمحا في الشارع من بعيد معجزة من نوع ما اقف امامها مشدوهة (ص٣٢٥) وكأن الله اغرقها بهذه النعمة فتزوجت شاعرا فلسطينيا من اهم الشعراء العرب هو مريد البرغوثي، كما صارت هي نفسها من اهم الكاتبات العربيات، ثم انجبت الشاعر تميم البرغوثي.

من اهم مميزات رضوى عاشور هو تعاليها على جراحها وآلامها، تذكر رضوى في صفحة ١١١ انها بعد عمليتها الخطيرة في الرأس غادرت المستشفى في واشنطن مع مريد وتميم يوم الثالث والعشرين من مايو/ايار ٢٠١١، وفي مساء يوم ٢٦ ايار/مايو ٢٠١١، ورغم انه عيد ميلادها، ورغم وضعها الصحي الخطير جدا، ذهبت الى ميدان التحرير في القاهرة، وستقول لنفسها "ها انت في نهاية المطاف وصلت الميدان الذي كان يُفترض ان تكوني فيه ولم تتمكني" (ص١١٥).

الكاتب المبدع يستطيع ان يَخرج خارج ذاته، يرسم الفرح رغم حزنه، وينحرط في النضال العام رغم آلامه الشخصية. ففي يوم الخميس الرابع من نوفمبر ٢٠١٠، ولم يمض على رحيل ام رضوى سوى ثلاثة اسابيع، خرجت رضوى بثوبها الاسود الى باحة قصر الزعفران (مقر رئاسة جامعة عين شمس) لتشترك مع زملائها بحملة "حرية الجامعة"، ومنع الأجهزة الأمنية من أن تمارس نشاطها ضد الطلبة (ص١٠).

وتصادف أن تكون بين أيدي جراحين يُعملون مشارطهم في رأسها في واشنطن، وتونس تشتعل بعد أن أحرق البوعزيزي نفسه، فتتعاطف مع ثورة الياسمين في تونس (ص٤٨).

وتصادف أيضا أن كانت عملية استئصال الورم من داخل رأسها مع جزء من عظم الجمجمة يوم ٢٦ يناير ٢٠١١، فكان أول مانطقت به بمجرد أن فاقت من البنج (كما أُبلغ مريد فيما بعد) هو "هل ضربوا العيال؟!".

ومن طرائف هذه السيرة أن رضوى لم تتعاطف فقط مع الشباب المصريين المعتصمين في ميدان التحرير بل تعاطفت أيضا مع القراء الذين سيقرأون كتابها هذا، وتخاف عليهم من النكد وهم يقرأون معاناتها وآلامها الشخصية والعامة فتقرر أن تجعل الفصل الثامن من كتابها فصلا هزليا لتعود بعد ذلك لتدخل في تفاصيل عملياتها الجراحية الثلاث في رأسها. وأخيرا تفتتح الفصل الحادي

والثلاثين بالاعتذار للقراء عن عرض آلامها عليهم، وتقترح عليهم أن يقفزوا عن هذا الفصل والذي يليه لما يحتويان من مآسي، والذهاب مباشرة الى فصل الختام ليشاركوا عائلة رضوى الممتدة باللقاء اللطيف بين افرادها على مائدة عامرة بالطيبات (ص٣٦٧).

صدر الكتاب عن دار الشروق المصرية في طبعته الاولى عام ٢٠١٣

ومن مسوّغات تميز هذا الكتاب والكاتبة رشاقة لغته ونعومتها، ودقة صوره خاصة وانه كُتب في أحلك ظروف حياتها حيث بدأت به عام ٢٠١١، وانهته يوم التاسع من مايو/أيار ٢٠١٣ (ص٣٩٣). ومن نواقصه أنها تجنبت أن تُطلع القراء على قصة لقائها مع مريد.